﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين ضراعة المؤمنين إلى الله، ومصير الكفرة المنبتّين عن الله

بعد أن ذكر اللّه الرَّاسخين في العلم، أصحاب العقول والبصائر، وزكَّاهم لقوَّة إيمانهم، وشدَّة إخلاصهم، وكثرة تضرُّعهم إلى خالقهم – سبحانه – وبشَّرَهم بحسن العاقبة؛ ذمَّ الكافرين وتوعَّدهم بسوء المصير وشديد العقاب.

"ولمَّا تحقَّق أنَّ يوم الجمع كائن لا محالة؛ تحقَّق أنَّ من نتائجه – تحقيقًا لعزَّته سبحانه وتعالى وانتقامه من الكفرة – قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الَّذين يظنُّون لِستْرِهِمْ ما دلَّت عليه مرأى عقولهم أنَّهم يمتنعون مِن أَمْر اللّه؛ لأنَّهم يفعلون في عصيانه وعداوة أوليائه فِعْلَ مَن يريد المغالبة"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: الْكَافُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ، يُقَالُ لِمَنْ غَطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قَدْ كَفَرَ دِرْعَهُ، ووُصِف اللَّيل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزَّارع لستره البذر في الأرض، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيَّة أو الشَّريعة أو النُّبوَّة، والكُفْرَانُ في جحود النِّعمة أكثر استعمالًا، والكُفْرُ في الدِّين أكثر، وهو المقصود عند الإطلاق[2].

2) ﴿تُغۡنِيَ﴾: الْغِنَى فِي الْمَالِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/253.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كفر).

بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ، يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ: لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ، وَغَنِيَ عَنْ كَذَا، فَهُوَ غَانٍ، وَغَنِيَ الْقَوْمُ فِي دَارِهِمْ: أَقَامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِهَا، ويقال: أَغْنَانِي كذا، وأغْنَى عنه كذا؛ إذا كفاه، قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقَّة: 28]، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ [المسد: 2]، ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1].

3) ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾: الْمِيمُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أصل واحد يَدُلُّ على الأثمان والنفقة التي تتيح الشراء وتتحصل من البيع أو الإرث أو أجر العمل، يقال: تَمَوَّلَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ مَالًا، وَمَالَ يَمَالُ: كَثُرَ مَالُهُ[2]، وأصله: (مَوْل)، قال الجوهريُّ: "تصغير المال: مُوَيْلٌ، ومالَ الرَّجلُ يمولُ ويَمال مَوْلًا ومؤولًا؛ إذا صار ذا مالٍ، وتَموَّل مثلُه، وموَّله غيرُه، ورجل مال، أي: كثير المال"[3]، وقد شاع أنَّ المَال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يميل بالإنسان إلى الباطل، كما روي عن سفيان الثَّوريِّ قال: كان يقال: إنَّما سمِّي المال؛ لأنَّه يميل بالنَّاس[4]، أو لأنَّه مال بالنَّاس عن طاعة الله[5] ﷻ.

وهو تعليل حسنٌ؛ لمناسبته التَّحذير من فتنة المال، وإن كان الأقرب إلى أصل الاشتقاق أن يكون المال من (مَوَلَ) لا من (ميَل)؛ لما سبق من تصغيره على (مُويل)، ولأنَّ المال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يُتَمَوَّل، ويُقْتنى، ويُتداوَل، وقد جعله الرَّاغب[6] من (ميَل)، ولكنَّ تعليله جِدُّ قريبٍ من الأصل؛ إذْ يقول: سمِّي المال مالًا؛ لأنَّه يميل من هذا إلى ذاك، ولذلك سمِّي عَرَضًا[7].

وقد نبَّه الإمام النَّووي على ذلك التَّعليل الطَّريف بقوله: "وهذه مناسبة في المعنى، وإلَّا فليس مشتقًّا من ذلك؛ فإنَّ عين المال واو، والإمالة من الميل ياء، ومن شروط الاشتقاق الاتِّفاق في الحروف الأصليَّة"[8]

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (غني).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ميل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مول).
(3) الجوهري، الصحاح: (مول).
(4) الرازي، تفسير ابن أبي حاتم: 7/2364.
(5) الهمذاني، الكشكول: 1/200.
(6) الراغب، المفردات: (ميل).
(7) وهذا من كلام الصاحب بن عباد، وهو في التَّمثيل والمحاضرة، ص: 250.
(8) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (مول): 3/324.

وليس خطأً، فإنَّ هذا الاشتقاق الأكبر، وقد فعلوا مثله كثيرًا، كما في لفظ الصَّلاة وغيرها[1].

4) ﴿أَوْلَٰدُهُم﴾: الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ دَلِيلُ النَّجْلِ وَالنَّسْلِ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، مِنْ ذَلِكَ الْوَلَد، وَهُوَ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ، وَيُقَالُ لِلْوَاحِدِ: وُلْدٌ أَيْضًا، وَالْوَلِيدَةُ: الْأُنْثَى، وَالْجَمْعُ: وَلَائِدُ، وَتَوَلَّدَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ: حَصَلَ عَنْهُ، قال أبو الحسن: الوَلَدُ: الابن والابنة، والوُلْدُ: هُمُ الأهلُ والوَلَدُ[2].

5) ﴿شَيْـًٔا﴾: لفظ عامٌّ، يدلُّ على موجود أو كائن، والمعنى المحوريُّ: نتوء متميِّز صُلْب في ظاهر الشَّيءِ، و"الشَّيء: هو الكائن أو الجسم[3]، أو "الموجود" بعبارة الرَّاغب[4]، وبذا فهي صالحة أن يعبَّر بها عن أيِّ كائن، وبعبارة سيبويه: لفظ "يقع على كلِّ ما أُخبرَ عنه"[5].

6) ﴿وَقُودُ﴾: الْوَاوُ وَالْقَافُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وَاتَّقَدَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَأَوْقَدْتُهَا أَنَا، وَالْوَقُودُ: الْحَطَبُ، وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ؛ إِذَا وَقَدَتْ، وَالْوَقَدُ: نَفْسُ النَّارِ، وَوَقْدَةُ الصَّيْفِ: أَشَدُّهُ حَرًّا، والوَقُودُ يقال للحطب المجعول للوُقُودِ، ولما حصل من اللَّهب، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

والمعنى المحوريُّ للفظ: (وقود): مادَّة حياة النَّار، أي: اشْتعالها، فالوَقُود هو مادَّة ذلك: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝﴾ [البروج: 5]، واسْتَوْقَدْتُ النَّارَ: أَوْقَدْتُها، واسْتَوْقَدَتْ هي ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، أي: اجتهد في إيقادها، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النُّور: 35].

ومن مجازه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 64]، "قَلْبٌ وَقَّاد كشدَّاد، ومُتَوَقِّد: مَاضٍ سريع، وتوقَّد الشَّيءُ: تلألأ "أخذًا من لمعان النَّار، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو بمعنى: إشعال النَّار.[6]

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (مول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شيأ).
(4) الراغب، المفردات: (شيأ)
(5) سيبويه، الكتاب: 1/22.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وقد).

7) ﴿ٱلنَّارِ﴾: النُّونُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَقِلَّةِ ثَبَاتٍ، مِنْهُ النُّورُ وَالنَّارُ، سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ الْإِضَاءَةِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْطَرِبًا سَرِيعَ الْحَرَكَةِ، وَتَنَوَّرْتُ النَّارَ: تَبَصَّرْتُهَا، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتَ وَأَهْلُهَا *** بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ[1]

والنَّارُ تقال للَّهيب الَّذي يبدو للحاسَّة، قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الواقعة: 71]، وللحرارة المجرَّدة، ولنار جهنَّم المذكورة في قوله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: 72]، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ [الهمزة: 6]، وقد ذكر ذلك في غير موضع.[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا عرض لبعض ما يقع في يوم البعث، وما يلقى فيه الذين كفروا بالله وباليوم الآخر من نكال وبلاء، حيث يُدعُّون إلى نار جهنَّم دعًّا، فلا يغني عنهم في ردِّ هذا البلاء ما كان لهم من مال وبنين، ومن أهل وصديق، فإنَّ الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوَّة محمَّد ﷺ سواء كانوا من بني إسرائيل أم من كفَّار العرب؛ لن تنجيهم أموالهم الَّتي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضارِّ، ولا أولادهم الَّذين يتناصرون بهم في مهامِّ أمورهم، ويعوِّلون عليهم في الخطوب النَّازلة من عذاب الله شيئًا، وقد قصَّ القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: 35]، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: 37] وسيكونون يوم القيامة حطبًا لجهنَّم الَّتي تُسعَّر بهم.[3]

لن يغني عن الكافر في عذاب النّار الأشدّ، ما حازه من مال، وما أنجب من ولد

(1) البيت من بحر الطويل، وهو في ديوان امرئ القيس: ص 136.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نور).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 3/104.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تلوين الخطاب في الآية الكريمة مع ما قبلها:

بيان كرامة المؤمنين الرّافعة، وإهانة الكافرين الضّافعة

في تلوين الخطاب من دعاء المؤمنين إلى الإخبار عن حال الكافرين؛ تصوير لمشهدين مختلفين، حيث كان الكلام السَّابق دعاءً نابعًا من قلوب المؤمنين، فأجراه الله على ألسنتهم، فلهجوا به موقنين بربِّهم، مستبشرين بكرمه، وكان الكلام في هذه الآية إخبارًا من الله تعالى عن أحوال الكافرين الَّذين استغنَوا بأموالهم وأولادِهم، وظنُّوا أنَّها تنفعهم وتدفع عنهم، ففرَّق بين الكلامَيْنِ؛ ليُعْلَم قدرُ الرَّاسخين في العلم الَّذين بلغوا من سعادتهم وفرحهم بما آتاهم الله من فضله أن دعوا ربَّهم، وأثنوا عليه، ونسبوا ما هم فيه من النَّعيم والعطايا إليه وحدَه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: 8]، فانظر كيف سألوه رحمتَه المتضمِّنةَ حصولَ كلِّ خيرٍ واندفاعِ كلِّ شرٍّ، وتوسَّلوا إليه باسمه الوهَّاب؟

ويُعْلَم - من جهة أخرى - حالُ الكافرين الَّذين لم يُؤْذَن لهم بالكلام، والإخبار عن أنفسهم، لشدَّة ما هم فيه من العذاب، بل أخبرنا الله عنهم؛ لنشكرَه على نعمه الكثيرة، وآلائه العظيمة، وأعظمها نعمة الإسلام، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، ونعوذ بالله من حال أهل النَّار.

بلاغة الفصل ودلالتها في الآية الكريمة:

الاستئناف ببيان حال الكافرين، بعد ذكر حال المؤمنين ودعائهم الضّارع

استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون: من دوام الهداية، وسؤال الرَّحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنِّذارة، وتعقيب دعاء المؤمنين، بذكر حال المشركين، جاءت الآية مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لما قبلها، وهو ما يسمَّى بشبه كمال

الاتصال، وكأنها إجابة على سؤال يتعلَّق ببيان حال الكافرين بعد ذكر حال الرَّاسخين في العلم، ودعاء المؤمنين - ولا سيَّما - وقد ختم بجمع النَّاس في يوم القيامة لمجازاتهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فهذه الآية وما قبلها في تقرير التَّوحيد سواءٌ كان ردًّا على نصارى نجران أم كان كلامًا مستقِلًّا؛ فإنَّ التَّوحيد لمَّا كان أهمَّ ركنٍ للإسلام؛ كان ممَّا تعرف البلاغة أن يبدأ بتقرير الحقِّ في نفسه، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود ومناشئ اغترارهم بالباطل، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحقِّ أو اشتغالهم عنه، وأهمُّها الأموال والأولاد؛ فهي تنبئهم هنا بأنَّها لا تغني عنهم في ذلك اليوم الَّذي لا ريب فيه؛ إذْ يجمع الله فيه النَّاس، ويحاسبهم بما عملوا، بل ولا في أيام الدُّنيا؛ لأنَّ أهل الحقِّ لا بدَّ أن يغلبوهم على أمرهم، وما أحوجَ الكافرين إلى هذا التذكير.[1]

دلالة تصدير الآية بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾:

زَعْمُ الكافرين أنَّ كثرة أموالهم وأولادهم، مانعة لهم من العذاب، زيف وإفك

قد يكون ﴿إِنَّ﴾ لمجرَّد الاهتمام بتأكيد الخبر، دون ردٍّ لشكٍّ أو إنكار، فيزداد المؤمن إيمانًا، أو أنَّ الخطاب لهؤلاء الكافرين المعاصرين وقت نزول القرآن، أو خطابًا عامًّا لهم، سواء عاصروه أم لم يعاصروه، فيكون الخطاب موافقًا ما هم فيه من الادِّعاء والزَّعم بأنَّ أموالهم وأولادهم تكفيهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: 35]، وهذا هو الظَّاهر؛ لذكر زعمهم في كتاب الله، ولأنّ في الآية أكثرَ من مؤكِّد.

نكتة العدول عن التَّعريف بـ (ال) إلى اسم الموصول:

جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث

الإتيان في ذكرهم بالتَّعريف بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أنَّ الذَّمَّ الوارد في الآية لأفعالهم، لا لأشخاصهم،

(1) رضا، تفسير المنار: 3/190، 191.

واحتمال تغيُّر حالهم من الكفر إلى الإيمان؛ لأنَّ جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، في حين أنَّ الاسم ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، ونلحظ هذا عند المقابلة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد ﷺ: 11]، فقابل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقابلهم بـ(الذين كفروا) كما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عند إرادة فعل الفتنة، في حين ذكر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عند ذكر الأشخاص في قوله تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ [النِّساء: 101] والتَّعريف بالموصول: إمَّا أن يكون لتعريف العهد مرادًا منه قومٌ معهودون من رؤوس الشِّرك وزعماء العناد، وإمَّا أن يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق.

دلالة الجمع والتَّعريف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

دلالة العموم المخصَّص بالقرينة في توجيه المعنى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صيغةٌ للجمع مع لام التَّعريف، وهي للاستغراق بظاهره، ثمَّ إنَّه لا نزاع في أنَّه ليس المراد منها هذا الظَّاهر؛ لأنَّ كثيرًا من الكفَّار أسلموا، فعلمنا أنَّ الله تعالى قد يتكلَّم بالعامِّ، ويكون مراده الخاصَّ؛ إمَّا لأجل أنَّ القرينة الدَّالَّة على أنَّ المراد من ذلك العموم ذلك الخصوص، كانت ظاهرة في زمن الرَّسول ﷺ فحسن ذلك لعدم التَّلبيس، وظهور المقصود، ومثاله: ما إذا كان للإنسان في البلد جمع مخصوص من الأعداء، فإذا قال: (إنَّ النَّاس يؤذونني)، فَهِم كلُّ أحد أنَّ مراده من النَّاس ذلك الجمع على التَّعيين، وإمَّا لأجل أنَّ التَّكلُّم بالعامِّ لإرادة الخاصِّ جائز؛ وإن لم يكن البيان مقرونًا به، عند من يُجَوِّز تأخير بيان التَّخصيص عن وقت الخطاب، وإذا ثبت ذلك؛ ظهر أنَّه لا يمكن التَّمسُّك بشيءٍ من صيغ العموم على القطع بالاستغراق؛ لاحتمال أنَّ المراد منها هو الخاصُّ، وكانت القرينة الدَّالَّة على ذلك ظاهرةً في زمن الرَّسول ﷺ فلا جرم حسُن ذلك[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/283، 284.

المقصود بعبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعلاقته بالسِّياق:

بناء السّياق على إرادة عموم الكافرين، والغرض خصوص أهل الكتاب

والمراد بالَّذين كفروا: المشركون، وهذا وصفٌ غالبٌ عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الَّذين كفروا بنبوَّة محمدٍ ﷺ وأريد هنا قريظة والنَّضير وأهل نجران، ويرجِّح هذا بأنَّهم ذكِّروا بحال فرعون دون حال عادٍ وثمود، فإنَّ اليهود والنَّصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أنَّ العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأنَّ الردَّ على النَّصارى من أهمِّ أغراض هذه السُّورة، ويجوز أن يكون المراد جميعَ الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون؛ لأنَّ وعيد اليهود في هذه الآية أهمُّ[1].

التّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة للموصول:

دلالة تحقُّق الوقوع وتجدُّده وحدوثه

كثُر مجيء ﴿كَفَرُواْ﴾ بصيغة الماضي صلةً للموصول في القرآن الكريم[2]، ويدلُّ الفعل الماضي على تحقُّق الوقوع، كما يشير إلى تجدُّده وحدوثه، في حين قلَّ مجيء ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: 21، النساء: 150] بالفعل المضارع؛ إذ إنَّه ورد مرَّتين فحسب؛ لأنَّه ورد في حالات خاصَّة، يصف طوائف مختلفة، ارتكبوا جرائم متعدِّدة، واحتيج الموصول إلى عطف أفعال مضارعة أخرى عليه، والموصول الَّذي يراد به الجماعة يصحُّ في العطف على صلته أن تكون الجمل المتعاطفة مع الصِّلة موزَّعةً على طوائف تلك الجماعة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النِّساء: 150].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

(2) ورد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سبعًا وخمسين ومئة (157) مرة، في القرآن الكريم.

نكتة الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الإيجاز بالحذف للاختصار وإفادة العموم:

أي: القوم الَّذين كفروا بالله وبرسوله وبالكتاب المنزَّل على رسوله، فحذف المعمول؛ للاختصار وإفادة العموم، وللتَّرهيب من الكفر بجميع أنواعه، وللتَّنفير من الاتِّصاف بهذا الوصف؛ ولذا جيء بالفعل المتعدِّي في صورة اللَّازم؛ ليشير إلى أنَّ مُجرَّد الاتِّصاف به مذموم.

دلالة حرف النَّفي ﴿لَن﴾:

تأكيد النّفي بالأداة (لن)، وأثره في المعنى

قد أكَّد سبحانه عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئًا - في وقت هم في أشدِّ الحاجة إلى من يعينهم، ويدفع عنهم - بحرف ﴿لَن﴾ المفيد لتأكيد النَّفي[1].

العدول عن (لن تنفَعَهُم) إلى ﴿لَن تُغْنِيَ﴾:

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر، وأوسع في الدّلالة

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر، وأشدُّ في التَّنكيل؛ لأنَّهم يمتلكون سبب الإغناء (الأموال والأولاد)، وكم كانوا يدَّعُون أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعذّبوا، فأثبت لهم سبب الإغناء، وعطَّله؛ ولذا أوثر لفظ ﴿تُغْنِيَ﴾ عن لفظ (تدفع)، أو (تنفع)، فقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، أي: لن ينفع، ولن يدفع؛ وإن توافر لهم، وإنَّما سمِّي المال: غنًى؛ لأنَّه ينفع النَّاس، ويدفع عنهم الفقر والنَّوائب[2].

ولمَّا كان الظَّاهرُ من حال كثير المال أنَّه لا يَعْجِزُ عن شيء يريده من لذَّاته وسائر مطالبه؛ سُمِّي المال الكثير غِنًى، وكذلك لمَّا كان مَن قَلَّ ماله؛ عَجَز عن إرادته، سُمِّي قلَّة المال: فقرًا، فهو من جنس تسمية السَّبب باسم المسَبَّب، وإلَّا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج، وحقيقة الفقر الاحتياج[3]، فهم مع ذلك أشدُّ فقرًا، وأعظم قهرًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/18.
(3) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 85.

ونفي الانتفاع قد يكون أنسب في مقام الحثِّ على موالاة المؤمنين، وعدم موالاة الكافرين؛ وإن كانوا أولادهم أو أقاربهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة: 3].

في حين أنَّ نفي الإغناء هنا أنسب؛ لدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدَّفع، ولكونه مُؤْذِنًا بأنَّ هنالك شيئًا يُدفع ضرُّه، وتُكفى كلفتُه؛ فلذلك ذُكر مع هذا الفعل متعلَّق ثانٍ، وعُدِّي الفعل إليه بحرف ﴿مِّنَ﴾[1].

علَّة اختصاص الكافرين بعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا:

المؤمنون ينتفعون بأموالهم وأولادهم عند الله الأجلّ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، اختُصَّ الكفَّار؛ لأنَّ المؤمنين تُغني عنهم أموالهم الَّتي ينفقونها في وجوه البِرِّ، فهم يجنون ثمرتها في الآخرة، وتنفعهم أولادهم في الآخرة، يسقونهم، ويكونون لهم حجابًا من النَّار، ويشفعون فيهم؛ إذا ماتوا صغارًا، وينفعونهم بالدُّعاء الصَّالح كبارًا، وكلُّ هذا ورد به الحديث الصَّحيح[2].

ما الّذي أفاد ذِكْرُ الأموال والأولاد؟

في الحوالك والمهالك، يفزع المرء لماله المحيز، وولده العزيز

وخصَّ الأموال والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّ المرء عند الخطوب والنَّوائب في الدُّنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور الَّتي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبيَّن الله تعالى أنَّ صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدُّنيا؛ لأنَّ أقرب الطُّرق إلى دفع المضارِّ إذا لم يتأتَّ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذُّر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعراء: 88، 89]، ولأنَّ الكفَّار كانوا أكثر ما يكونون اغترارًا بالأموال والأولاد، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/40.

حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم في كثير من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35][1].

ويقال: إنّما ذكر الأموال والأولاد؛ لأنَّ أكثر النَّاس يدخلون النَّار، لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنَّه لا ينفعهم في الآخرة؛ لكيلا يُفني النَّاس أعمارهم، لأجل المال والولد، وإنّما ذكر الله تعالى الكفَّار؛ لكي يعتبر بذلك المؤمنون[2].

سرُّ تقديم الأموال على الأولاد في السّياق:

المـــال آثـــر إلى النّفس، وأبلغ في باب مدافعة المحن، والتوقّي من الفتن

لَمَّا كان المال في باب المدافعة والتَّقرُّب والفتنة أبلغ من الأولاد، قدَّم في هذه الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التَّغابن: 15]، وقوله: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، وفي قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشُّعراء: 88] بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾، فإنَّه ذكر هنا حبَّ الشَّهوات، فقدَّم فيه النِّساء والبنين على ذكر الأموال[3].

نكتة وجود (لا) في عطف الأولاد على الأموال:

التَّرقِّي في نفي النَّفع من القويِّ إلى الأقوى، من بلاغة السّياق

قوله في نفي نفع الأولاد بعد نفي نفع الأموال: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ إشارة إلى أنَّ قوَّة النَّفع بمقتضى الفطرة والعادات الجارية في الأولاد أكثر؛ ولذا أكَّد النَّفي فيه بعد تأكيده أوَّلًا بتكرار ﴿وَلَآ﴾ كأنَّ نفي نفع الأموال أسهل قبولًا من نفي نفع الأولاد؛ ولذا زاده توكيدًا بعد توكيدٍ[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/34.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/1120.

فائدة ذكر الجارّ والمجرور على التّعظيم في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

لـن يـنـوب عن رحـمـة الـلـه وطـاعـتـه، مـال وفـيـر، ولا ولـد أثير

أي: من عذابه شيئًا من الإغناء، وقيل: كلمة ﴿مِّنَ﴾ بمعنى: البدل، والمعنى بدل رحمة الله، أو بدل طاعته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس: 36]، أي: بدل الحقِّ، ومنه قوله ﷺ: «ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ» أي لا ينفعه جدُّه بَدَلك، أي: بدل رحمتك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: 37]، وأنت خبير بأنَّ احتمال سدِّ أموالهم وأولادهم مسدَّ رحمة الله تعالى أو طاعته، ممَّا لا يخطر ببال أحد حتَّى يتصدَّى لنفيه، والأوَّل الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم، والأنسب بما بعده من قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1].

أي: إنَّ أموالهم وأولادهم لن تكون بدلًا لهم من الله تعالى، تغنيهم عنه، فإنَّهم إذا تمادَوا على باطلهم؛ يُغلبون على أمرهم في الدُّنيا، ويُعَذَّبون في الآخرة[2].

سرُّ تخصيص اسم الجلالة بالذِّكر هنا دون غيره من الأسماء الحسنى:

اسـم الـجـلالـة علم على الذَّات العليَّة الشّان، وهـو الأنـسـب في مـقـام الـكـفـر والإيمان

جميع الآيات الَّتي في هذا المعنى ذكرت اسم الجلالة (الله)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]، وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الجاثية: 19]، وقوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [المجادلة: 17]، وقوله: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [التحريم: 10]، فاسم الجلالة (الله) هو الأنسب هنا؛ لأنَّه علم على الذَّات العليَّة، وهو الاسم الَّذي تنعقد به الشَّهادة؛ للدُّخول في الإسلام، وهو هنا في مقام الإيمان والكفر،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/191.

وهؤلاء الكافرون قد جحدوا ألوهيَّته، كما أنَّه لا يسمَّى به أحد غيره، وما دونه صفات للّٰه، وهو يجمع صفات الجمال والجلال جميعًا.

دلالة قوله ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وسرُّ مجيئها نكرة:

مدلولُ العموم، تيئيسٌ من الإغناء على العموم

دلَّت كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ بلفظها على نفي الإغناء، ولو كان يسيرًا، أو حقيرًا، ودلَّ تنكيرها ووقوعُها في سياق النَّفي على العموم وزيادة التيئيس من إغناء أموالهم، وأولادهم عنهم من اللّٰه أيَّ شيءٍ من دفع العذاب أو الانتفاع.

وانتصب قوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق، أي: شيئًا من الغناء، وتنكيره للتَّحقير، أي: غناء ضعيفًا، بلَهَ الغَناء المُهِمَّ، ولا يجوز أن يكون مفعولًا به؛ لعدم استقامة معنى الفعل في التَّعدِّي[1].

وقوع الوعيد في الدُّنيا والآخرة، بقرينة معنويّة ظاهرة:

من كفر بمولاه، ذاق عذاب النّار في دنياه وأخراه

قوله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يحتمل أن يكون وعيدًا لهم بعذاب الآخرة، كما يحتمل الظَّاهر أنَّ هذا وعيد بعذاب الدُّنيا؛ لأنَّه شبَّه بأنَّه كدأب آل فرعون إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، وشأن المشبَّه به أن يكون معلومًا؛ ولأنَّه عُطف عليه عذابُ الآخرة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[2].

نكتة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تصعيدُ المعاني في السّياق، بالتّرقّي في تصوير ألوان التّعذيب والإحراق

أفادت الواو هنا: عطف الخبر بأنَّ هؤلاء الكافرين معذَّبون، وسيكونون حطبًا لجهنَّم، عطف هذا الخبر المؤلم على الجملة المنفيَّة قبلُ بحرف التَّأكيد ﴿لَن﴾، وفيه: على اعتبار أنَّ الوعيد بعذاب الآخرة تصعيدُ المعاني، والتَّرقِّي في الإخبار بالعذاب؛ لزيادة التَّنكيل، فإنَّ كمال العذاب على هؤلاء أن قد زال عنهم ما كانوا يحتمون به، وينتفعون به، ثمَّ اجتمعت عليهم جميع ألوان العذاب المؤلمة، والعياذ باللّٰه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

والعطف ظاهر على اعتداد أنَّ الجملة قبلها في وعيد الدُّنيا، وهذه في وعيد الآخرة بقرينة قوله في الآية الَّتي بعد هذه: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾[1].

نكتة المجيء باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الآية الكريمة:

الإشـــــارة استحضار لهم في الأذهـــان، وإشعار بغلوّهم في الكفران

وجيء بالإشارة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لاستحضارهم في الأذهان، حتَّى لكأنَّهم بحيث يشار إليهم، وللتَّنبيه على أنَّهم أحرياء بما سيأتي من الخبر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وكانت الإشارة للبعيد، للإشعار بغلوِّهم في الكفر، وانغماسهم فيه إلى منتهاه؛ ولذلك كانت العقوبة شديدة[2].

فائدة الضَّمير المنفصل في قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تـأكـيـد الـخـبـر والـدَّلالـة على الـحـصـر، من بلاغة السّياق

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل، وهو ضمير الفصل بين المبتدأ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ والخبر ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ مبنيٌّ على السُّكون لا محلَّ له من الإعراب، والغرض منه تأكيد الخبر والدَّلالة على حصرهم فيه، وكأنَّهم وحدهم حطب النَّار، ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ في محلِّ رفع مبتدأ ثان، خبره ما بعده، والمبتدأ الثَّاني وخبره خبر المبتدأ الأوَّل، والفرق بين المعنيين، أنَّ الخبر على الوجه الثَّاني يصير جملة اسميَّة ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام، وعلى الوجه الأوَّل دلَّ ضمير الفصل على تقوية الخبر وتوكيده.

سرُّ العدول عن (حطب النَّار) إلى ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

فـائـدة الـعـدول بـالـلّـفـظ، أعـمُّ دلالـــةً، وأشـدّ إخافة

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: أعمُّ دلالةً، وأعظم تهويلًا، وأشدُّ تفظيعًا من حطب النَّار؛ إذ إنَّ الوَقود ما توقد به النَّار، وعلى قراءة (وُقود) بالضَّمِّ[3]، أي: فعلُ النَّار؛ إذا اتَّقدت، وهو مصدر، أي: أهل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/38.
(3) هي قراءة شاذَّة، نسبت إلى الحسن وطلحة بن مصرف ومجاهد، كما ذكر ابن خالويه، في المختصر، ص: 19، وأبو حيان، في البحر المحيط: 2/388.

وُقُودِها، ففي لفظ ﴿وَقُودُ﴾ على القراءتين دليل على ملازمتهم لها، ودوامهم فيها.

والنَّار: اسم عامٌّ على ما أعدَّه الله للعذاب يوم القيامة، وهو الأنسب هنا لإضافة الوقود إليها، كما أنَّ الأنسب إضافة الحطب، أو الحصب - بالصَّاد المهملة - إلى جهنَّم؛ للدِّلالة على قعرها البعيد، فإنَّها سمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّها ذات جَهْمة وظلمة بسوادها وقعرها، والعرب تسمِّي البئر البعيدة القعْر: جِهنَّام[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: 98].

إيثار مجيء رأس الآية جملةً اسميَّةً، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

من مقاصد التّصدير بالجملة الإسميّة، تحقُّق الأمر وتقريره

أي: أولئك المتَّصفون بالكفر حطب النَّار، وحصبها الَّذي تُسَعَّرُ به، فإن أريد بيان حالهم عند التَّسعير؛ فإيثار الجملة الاسميَّة للدَّلالة على تحقُّق الأمر وتقرُّره، وإلَّا فهو للإيذان بأنَّ حقيقة حالهم ذلك، وأنَّ أحوالهم الظَّاهرة بمنزلة العدم، فهم حال كونهم في الدُّنيا وقودَ النَّار بأعيانهم، وفيه من الدِّلالة على كمال ملابستهم بالنَّار ما لا يخفى، وقد سبق أنَّ ﴿هُمْ﴾ يحتمل الابتداء، وأن يكون ضمير الفصل، والجملة إمَّا مستأنفة مقرِّرة لعدم الإغناء، أو معطوفة على خبر إنَّ، وأيًّا ما كان ففيها تعيين للعذاب الَّذي بيَّن أنَّ أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئًا[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

وردت آية متشابهة مع هذه الآية في السُّورة نفسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جهم).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.

كما وردت آية ثالثة تشبههما، وهي قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: 17].

فأمَّا هذه الأخيرة، فهي فريدة من حيث صدرُها؛ إذ إنَّها بدأت بالإخبار مباشرة دون ذكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّها خبر عن فريق من المنافقين قد ذكروا من قبل في قوله تعالى: ﴿*أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: 14].

وأمَّا آيتا سورة آل عمران؛ فإنَّهما متماثلتان في التَّركيب من ﴿إِنَّ﴾ واسمِها ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وخبرِها ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾، ومختلفتان في تَتِمَّة كلٍّ، حيث خُتمت الآية الأولى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾، في حين خُتمت الآية الأخرى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116]، ونكتة ذلك الاختلاف يرجع إلى الأسباب الآتية:

أوَّلًا: التَّرقِّي في المعاني، وتصعيد الوعيد؛ فقد اكتفى أوَّلًا بذكر العذاب الشَّديد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: 4]، "فكما بدأ خطاب التَّنزيل من أعلاه؛ نظم به ابتداء الكفر من أدناه"(1)، ثمَّ توعَّدهم بأنَّهم وقود النَّار، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، ثمَّ صعَّد الوعيد والتَّهديد بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116]، وفيه تفنُّنٌ في الكلام على عادة العرب.

ثانيًا: مناسبة الفاصلة في كلِّ السِّياق؛ فقد ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حال هؤلاء الكافرين الَّذين في قلوبهم زيغ، ويتَّبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة، فكان الجزاء من جنس العمل؛ فكما كانوا يشعلون الفتنة في الدُّنيا؛ يكونون حطبًا للنَّار في الآخرة، والعياذ بالله.

كما ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116] حال الكافرين الَّذين يعرفون الحقَّ، ثم هم يجحدونه، والحكم الواقع على الَّذين كفروا هنا: عامٌّ، يشمل الكافرين جميعًا، وإن كان يتَّجه أوَّلَ ما يتَّجه إلى الكافرين من أهل الكتاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/11.

الذين تحدَّثتْ عنهم الآيات السَّابقة؛ لأنَّهم كفروا مع ما في أيديهم من هدى، وطرحوا ما معهم من إيمان: بخلاف الكافرين أصلًا؛ وإن كان الكفر هو الكفر، إلَّا أنَّ بعضه أشدُّ من بعض سوءًا، وأبغض وجهًا.

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب، ومن غير أهل الكتاب، سيلقون جزاء كفرهم يوم القيامة، حيث يلقون في نار جهنَّم خالدين فيها أبدًا، وحيث لا يدفع عنهم هذا العذاب ما كان لهم في الدُّنيا من مال وولد؛ وإن ملأ وجه الأرض كثرةً وعددًا.[1]

ثالثًا: مقابلة قوله في عقاب الكافرين: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116] بما سبق من ثواب في حقِّ المؤمنين، جامعًا بين الزَّجر والتَّرغيب والوعد والوعيد، فلمَّا وصف من آمن بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة؛ أتبعه تعالى بوعيد الكفار.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/563، 408.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»